

لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة، وأما هذه فأحرى بها أن تسمى صورة حياته، ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورةً خري من أن تكون قصة؛ قصة نادرة بني قصص الواقع أو الخيال، ولكننا إذا نظرنا في ديوانه وجدنا مرآة صادقة، ووجدنا في المرآة صورة ناطقة لا نظري لها فيما نعلم من دواوين الشعراء، تستحق من أجلها أن يُكتب فيها كتاب. إن مزايا الشعر كثرة تتفرق بين الشعراء، ويتفرق الإعجاب بها بين القراء، يحرم الشاعر إحداها أو أكثرها وهو بعد شاعر لا غبار عليه؛ الوجوه رائق جميل، ذاك، ولا تشابه بينهما في غري الحلاوة؛ أختها، وليس هناك إلا جمال وكذلك الشعر، طراز، والذي يعجبنا من هذين زيدون، والذي يستحق به كل واحد منهم صفة الشاعرية، غري الذي يستحقها به البقية؛ فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق، والتعريف. غري أن الملية التي لا غنى عنها، مزية واحدة، وتلك هي الطبيعة الفنية. نتعمد أن نقول: إنها تسمى باسم واحد؛ هذه التسمية. فالطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بيّنة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات، أليست جوانب الحياة علمياً لا حد لها في العدد ولا في الصفة؟ ثم أليست أنواع التيقظ لتلك الجوانب أشدّ وأخلاط لا تجتمع في حصر حاصر؛ بل! فمن الملتيقظ لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها، أو مستقيمه أو منحرفه، إلى غري ذلك من أنواع الشعور ودرجاته، فالذي تجمعهم كلمة اليقظة هنية لا تلبث أوصاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق، الملعنى، وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح؛ نعم! وسبيل ذلك غري عسري، فنحن نقول موجزين: إن الطبيعة الفنية هي تلك حياته هو موضوع شعره، باطنية لنفسه، يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان، مما تتألف منه حياة الإنسان، الطوعية واختياراً، أو يقل، كما يلتقي الصديقان أحياناً بعد الحني على كره واضطرار، الملواعيد، أو قصري، وتفارقه، وينقل عنها ما تقول، وهو — إذا فارقت — فرد من هذا الملاء الذي لا يُوحى إليه، ولا يكشف عنه الحجاب فمن عرف ابن الرومي الشاعر؛ ولم ينقص منه إلا الفضول. والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم وإن عرفت له مزايا ونالت حسنات له حقاً من الإعجاب. ليس من الصدق للتاريخ أن يقال: إن ابن الرومي كان خاملاً في زمانه أو بعد زمانه، بهذا الملعنى الشائع من الخمول الذي يراد به سقوط الملكة الأدبية ونسيان الأثر بني الملتأدبني، فلعله إذا قيس إلى الشعراء الهجّ أنني خليق أن يعد سعيد الحظ موفور الجزاء؛ وذهب شعر دعبل إلا أقله، فلم يذهب منه إلا أقله! وهذه محاباة من الشهرة لم يرقها في العربية شاعر هجاء، أو لم كرفي كل كتاب متداول من كتب الأدب، وحفظت له مختارات كثيرة لأنه ذاك عليه لا إصغاراً لشأنه، تعمدوا ذلك حنقاً تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ في اللغة العربية من جهة، ولأن وربما كان الإقذاع في الهجاء سبباً ثالثاً مضافاً إلى ذينك السببني. الشائع من الخمول، ولكنه مع هذا كان خاملاً، وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء؛ ولكنه يخفي أجمل فضائله وأكبر مزاياه. وملتأدبني. والتوليد الغريب، ولا يترك والناقص فيه هو الملهم، وهو الأجدر بالتنويه؛ كله مصحوباً بالطبيعة الحية، والإحساس البالغ، والذخيرة النفسية، والافتنان فيه؛ إن كثيراً من النظامي ليغوصون على الملعاني النادرة ليستخرجوا لنا أصدافاً أو لآلى رخيصة كلالئ الملعز وابن خفاجة وإخوان هذا الطراز، إن لم يكن صادق التعبري، مطبوع التمثيل والتصوير. وأرقام وحروف، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوي درهما إن لم وهو الثروة الشعرية التي يقاس بها سراة الكلام، فعلامة لا أكثر ولا أقل، وقد تغني عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع نعم، المطلوب في لبابه، فكل معانيه وتوليداته ونوادره ولا استغراق؛ فقد أدى رسالته وأبلغ في أدائها أكمل بلاغ، وهذه هي الرسالة الملقصودة، وهذه هي الطبيعة الفنية. أما الملعاني والتوليدات فهي وسائل إلى غاية لا قيمة لها إلا فيما تؤديه وتنتهي إليه، ومن أداها إليك بكلام لا أغراب فيه ولا توليد. غواص على الملعاني، ولكننا لو فقد توليداته ومعانيه، ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة والشاعر في جيده وريثه، وليس الشعر عنده لباساً يلبسه للزينة في مواسم الأيام، كلا! بل هو إهابه الموصول بعروق جسمه، الملتسوج من والإبانة عن صحته وسقمه، بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته، واملرء يحيا في أحسن أوقاته، ويحيا في أسوأ أوقاته، وهو الجانب الذي